أصحابُ الوظائفِ الديوانيةِ مِن أربابِ الأقلامِ ونفوذُهم في مصرَ في العصرِ المملوكيِّ ٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م

أشرف محمد أنس

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد – كلية الآداب – جامعة المنصورة

ashrafanas2002@yahoo.ccom

الملخص: حفل تاريخ السلطنة المملوكية بالعديد من هذه الشخصيات القوية التي تبوأت مكانة عالية داخلها، وكانت هذه الشخصيات موزعة بين أرباب إدارة الحكم، سواء أرباب السيوف من الأمراء المماليك، أو أرباب الأقلام من العاملين في الدواوين. وقد أطلق المؤرخون على هذه الشخصيات من الألقاب ما عبر عن مكانتهم العالية، ومن هذه الألقاب لقب "عظيم الدولة"، فكان هذا اللقب يعبر عن المكانة الرفيعة والخطيرة لصاحبها، وتعددت أيضا المفردات التي اشتقت منه، أو ساوته في وصف مكانة ورفعة صاحبها.

ولذلك فإن دراسة وضعية هذه الشخصيات من أرباب الأقلام داخل الدولة والظروف المؤدية إلى تبوأ تلك الشخصيات هذه المكانة، يمكن أن يؤدي إلى معرفة التاريخ السياسي الداخلي ومتغيرات الأوضاع داخل السلطنة وإلى معرفة دلالات التمكن السياسي داخل السلطنة المملوكية، وهل هناك متغيرات بين عصري السلطنة يمكن ملاحظتها من خلال دراسة هذا الموضوع.

الكلمات الدالة: السلطنة المملوكية، أرباب الأقلام، أرباب السيوف، أصحاب النفوذ، الألقاب.

Clerks of Diwān and their influence in the Mamluk era 1250-1517AD/ 648-923H.

Ahraf Muhammad Anas

Faculty of Arts – Mansura University

Abstract: History of Mamluk sultanate witnessed several strong individuals who assumed a high positon in the state. These figures were distributed among the heads of the administration of government, whether they were bearers of swords (Arbāb al-Sayf) from the Mamluk princes, or the clerks of Diwān (bearers of the pens /Arbāb al-Aqlām) who worked in the state bureaus. Historians bestowed several titles on these figures which illustrated their high rank. Among these titles “Aẓīm al-Dawalah”, which express the high standing of its owner. There were several terms derived from it, or were equal, to describe the stature and exaltedness of its owner.

Thus studying position of these figures of state clerks, and the situations lead to occupying them, would reveal some aspects of internal political history and changing situations inside the sultanate, and to perceive signs of political empowerment in the Sultanate, and to what extent was any variables between two periods of the Sultanate, could be observed through studying this topic.

Keywords: Mamluk sultanate, Arbāb al-Aqlām, Arbāb al-Sayf, Influencers, titles.

مدخل: تمر في حياة الدول شخصياتٌ فارقة من غير الملوك والوزراء، تركت بصمتها على الحياة العامة بشكلٍ كبيرٍ: منهم علماء أو تجار أو أرباب وظائف تميزوا بالشخصية القوية والمَلَكات العديدة التي بوأتهم مكانة عالية في زمنهم. ويحفل تاريخ السلطنة المملوكية بكثيرٍ من أرباب الدولة الذين تبوأوا تلك المكانة، كما تحفل كتب التاريخ ومصادر تلك الفترة بأسمائهم، وأسبغ عليهم المؤرخون الكثير من الأوصاف تعبيرًا عما وصلوا إليه من قوة ومكانة داخل الدولة. وكانت هذه الشخصيات موزعة بين أرباب إدارة الحكم، سواء أرباب السيوف من الأمراء المماليك، أو أرباب الأقلام من العاملين في الدواوين. وقد أطلق المؤرخون على هذه الشخصيات من الألقاب ما عبر عن مكانتهم العالية ودورهم المهم، ومن هذه الألقاب لقب "عظيم الدولة" الذي كان يعبر عن المكانة الرفيعة والخطيرة لصاحبها، وتعددت أيضًا المفردات التي اشتُقت منه، أو ساوته في وصف مكانة صاحبها ورفعته.

ومن هنا تأتي أهمية دراسة وضعية هذه الشخصيات من أرباب الأقلام داخل الدولة والظروف التي أدت إلى تبوأ تلك الشخصيات هذه المكانة؛ بحيث يمكن أن يساعد ذلك في رصد حركة التاريخ السياسي الداخلي للسلطنة، ومعرفة متغيرات الأوضاع داخلها، وفهم دلالات التمكن السياسي فيها. وعلى المدى الأوسع يمكن من خلال دراسة هذا الموضوع رصد المتغيرات بين عصري السلطنة.

ولدراسة هذه الحركة، ومعرفة تلك المتغيرات، وفهم تلك الدلالات؛ يستلزم الأمر طرح عدة أسئلة تساعد الدراسة في الإجابة عليها، وهي:

- هل كل هؤلاء الأفراد بالفعل كانوا أكبر رجال الدولة لا يطاولهم في نفوذهم إنسان أخر؟ أم أن هناك نوع من المبالغة اللغوية من المؤرخين الذين ترجموا وتحدثوا عنهم؟
- هل كان هناك صراع بينهم؟ وإلى أي مدى وصل هذا الصراع؟
- هل كان للصفات الشخصية لبعض سلاطين المماليك دورًا في ظهور مثل هذه الشخصيات بجانبهم يتقاسمون معهم سلطتهم ونفوذهم داخل الدولة؟
- هل كانت الغلبة لأرباب السيوف أم لأرباب الأقلام؟ وهل استمرت تلك الغلبة طوال العصر المملوكي بدوليته: البحرية والجركسية أم اختلف الحال من دولة لأخرى؟
- ما هي العوامل التي أدت إلى ظهور أرباب الأقلام على ساحة الحكم، بالرغم من أن طبيعة حكم المماليك كان النفوذ السياسي فيها أغلبه يميل ناحية أصحاب السيوف في العصر الأول، وما الأسباب التي أدت إلى زيادة عدد أرباب الأقلام كأصحاب نفوذ في عصر الجراكسة؟ هل هو تغير فكرٍ أم تغير ظروف محيطة بالسلطنة والسلاطين؟

أولًا- سلاطين المماليك وتعاظُم نفوذ أرباب الأقلام:

تعددت الأسباب والعوامل التي أدت إلى تعاظم نفوذ أرباب الأقلام[١]، فيما بين عصري المماليك، وإن اتفقت في مجملها على أن لها علاقة برأس الدولة، وهو السلطان، وهذه الأسباب يمكن إجمالها فيما يلي:

١- شَرَهُ السَّلاطين للمال:

لعل هذا السبب كان أكثر الأسباب وضوحًا فيما وصل إليه نفوذ أرباب الأقلام من مكانة؛ لأن أرباب الأقلام كانوا يعرفون الباب الرئيس لتمكنهم في الدولة؛ وهو إشباع نهم السلاطين إلى المال، ولقد ظهر ذلك في تولي نسبة ليست بالقليلة منصب "ناظر الخاص"[٢] المسئول عن مالية السلطان وأملاكه، وكلما زادت همة ناظر الخاص فيما يقوم به من إجراءات سواء كانت مصادرة[٣]، أو طرح سلع[٤]، أو احتكارها[٥]، كان ذلك يزيد من مكانته لدى السلطان، ولعل أوضح مثال لذلك هو النشو[٦] ناظر خاص السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣، ٦٩٨، ٧٠٩ – ٧٤١ هـ/ ١٢٩٣، ١٢٩٩، ١٣١٠ – ١٣٤١م) الذي تجبر وعلت مكانته نتيجة إشباعه لنهم السلطان الناصر للمال؛

---

[١] درج المؤرخون قديمًا وحديثًا على الإشارة إلى الفقهاء والقضاة والعاملين بالدواوين بأنهم أصحاب العمامة أو المعممون في مقابل أرباب السيف وهم المماليك الذين لا يرتدون العمامة، وإن أطلق أيضًا على العاملين بالدواوين والإدارة المالية لقب أرباب الأقلام على الرغم من شمول اللقب العاملين بالوظائف الدينية أيضًا، وأرباب الوظائف الديوانية هم المقصودون في هذا البحث. انظر: القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج١ (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩١٤-١٩١٩)، ٤١٧؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٩٢)، ٣٥؛ أحمد حسن البطاوي، أهل العمامة في مصر في عصر سلاطين المماليك، ط١ (القاهرة: دار عين، ٢٠٠٧)، ٣.

[٢] هي وظيفة أحدثها الناصر محمد بن قلاوون، ثم أبطل منصب الوزارة وتحولت مهامه لناظر الخاص، وتعنى هذه الوظيفة بمالية السلطان الخاصة. عنها انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ٣٠؛ السحماوي (شمس الدين محمد بن محمد)، الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم، تحقيق: أشرف محمد أنس، ج١(القاهرة: دار الكتب المصرية، ٢٠٠٩)، ٤١٧.

[٣] من السياسات العقابية والمالية في عصر المماليك، وذلك من خلال مصادرة الأفراد أي كانت مكانتهم أو جرمهم. وعن ذلك بالتفصيل. البيومي إسماعيل الشربيني، مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية، سلسلة تاريخ المصريين (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧ م).

[٤] قامت سياسة طرح السلع المملوكة للسلطان على التجار بالسعر الذي يراه، وسميت هذه السياسة المالية الجائرة بالرمي والطرح. انظر: محمد عيسى صالحية، ظاهرة الرمي والطرح، مجلة أبحاث اليرموك وسلسلة العلوم الانسانية والاجتماعية، المجلد ٩، العدد ٦، (١٩٩٣): ٥١-١٢٤.

[٥] سياسة مالية جائرة تكمل سياسة الرمي والطرح، وهي تفرد السلطان ببيع أنواع معينة من السلع لا تطرح في الأسواق إلا عن طريقه. انظر: علاء طه رزق، الاحتكار السلعي وأثاره السلبية على المجتمع المصري، وقائع تاريخية، مركز البحوث والدراسات التاريخية جامعة القاهرة، يناير (٢٠١١): ١٩٧-٢٣٨.

[٦] هو عبد الوهاب بن فضل الله الكاتب شرف الدين النشو، ت ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م. انظر ترجمته بالتفصيل: الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك)، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤط، تركي مصطفى، ج١٩، ط١ (بيروت: دار إحياء التراث العربي ٢٠٠٠)، ٢١٦، ت رقم (٧٤٢٤)؛ ابن حجر (شهاب الدين أحمد بن علي)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٣، ط١ (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٣)، ٤٢٩، ت رقم (٢٥٤٩)؛ ومن الدراسات الحديثة عنه: مسعد الكتبي، ناظر الخاص السلطاني النشو وسنواته السبع العجاف، مجلة كلية التربية، جامعة كفر الشيخ، العدد ٥ (٢٠٠٨): ١٤٩-٢٢٩.

حتى يستطيع أن يلبي مشروعاته المختلفة، والإنفاق على مماليكه[١]، حتى أن النشو كان يقول: "خاطرت بروحي في تحصيل الأموال، وهو يفرقها"[٢].

وعُدَّ إشباعُ نهم السلاطين بالمال الطريق الذي من خلاله ينفذ الشخص إلى عقل السلطان، ومن ثم إلى احتلال مكانة بارزة في دولته، ومن هؤلاء يبرز اسم زين الدين عبد الباسط[٣] ناظر ديوان الجيش[٤] في دولة الأشرف برسباي (٨٢٥-٨٤١ هـ/ ١٤٢٢-١٤٣٧ م)، ولعل أصدق ما قيل عن كيفية سيطرة زين الدين عبد الباسط على الأشرف برسباي، ومن ثم على المكانة العظيمة بالدولة ما ذكره ابن تغري بردي حين قال: "أخذ الزيني عبد الباسط يتقرب إليه بالتقادم الهائلة والتحف الظريفة، وفتح له أبوابًا في جمع الأموال وإنشاء العمائر، وكان عند الملك الأشرف بُعَيْضُ طمعٍ، فطال عبد الباسط بذلك واستطال حتى صار هو المشار إليه والمعول عليه في الدولة، ونالته السعادة، ورأى من الوجاهة والحرمة ما لم ينله أحد في زمانه"[٥].

وهناك من لم يكن له وظيفة ديوانية في الدولة، ولكنه استطاع الوصول إلى الوظائف، وإلى عقل السلطان من خلال إشباع نهمه للمال، ومثل هذا النوع أبو الخير النحاس[٦] الذي استطاع الوصول للسلطان جقمق (٨٤٢-٨٥٧ هـ/ ١٤٣٨-١٤٥٣ م) ممنيًا إياه بالحصول على مال جوهر القنقبائي[٧] الخازندار[٨]، وكان السلطان جقمق بعد وفاة جوهر يمني نفسه بالحصول على المال الوفير من تركته، إلا أنه لم يجد إلا القليل، وكان الذي دله على مال جوهر هو أبو الخير النحاس[٩] فتقرب منه بعد ذلك، واستمر يشبع نهمه للمال حتى تمكن منه تمامًا، خاصة وأنه استطاع

---

[١] مسعد الكتبي، ناظر الخاص، ص١٧٠.

[٢] المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ٤٣٢.

[٣] هو عبد الباسط بن خليل بن إبراهيم، ت ٨٥٤ هـ/ ١٤٥٠م، التحق بخدمة المؤيد شيخ قبل سلطنته، وكان يطمع في مكانة كبيرة لديه حتى عينه السلطان الظاهر ططر (٨٢٤هـ/ ١٤٢٢م) ناظرًا لديوان الجيش، الذي استمر به حتى عام ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م. انظر ترجمته: ابن تغري بردي (جمال الدين يوسف)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، نبيل عبد العزيز، ج٧ (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ١٩٨٤-٢٠٠٩ م)، ١٣٦، ت رقم (١٣٥٨)؛ السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج٤ (بيروت: دار الجيل، ت ١٩٩٢م)، ٢٤، ت رقم (٨١).

[٤] من أهم الوظائف الديوانية في عصر المماليك، يختص ناظرها بالتحدث عن توزيع الإقطاعات، سواء للمماليك كبيرهم وصغيرهم، وللخليفة وأبناء المماليك، بجميع أنحاء السلطنة المملوكية. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ٣٠؛ السحماوي، الثغر الباسم، ج١، ٤١٩.

[٥] ابن تغري بردي، المنهل، ج٧، ١٣٩، ت رقم ١٣٥٨؛ النجوم، ج١٥، ١١٠.

[٦] هو زين الدين محمد أبو الخير بن شهاب الدين محمد المعروف بابن الفقيه، ت ٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م، انظر ترجمته: ابن تغري بردي، المنهل، ج١٢، ٣٢٢، ت رقم (٢٧٩٧)؛ السخاوي، الضوء، ج٧، ٦٣، ت رقم (١٢٧).

[٧] هو الأمير صفي الدين الخازندار جوهر بن عبد الله القنقبائي الطواشي الحبشي، ت ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م. انظر ترجمته: المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، سعيد عبد الفتاح عاشور، ج٤ (القاهرة: دار الكتب المصرية ١٩٥٧. ١٩٧٣)، ق٣، ١٢٣٤؛ ابن تغري بردي، المنهل، ج٥، ٣٨، ت رقم (٨٧٢)؛ السخاوي، الضوء، ج٣، ٨٢.

[٨] أصل كلمة الخازندار تتكون من مقطعين الخزانة دار، بمعنى ممسك الخزانة، أمير خازندار هو القائم على خزائن الأموال الخاصة بالسلطان، من نقود وقماش وسائر ما يملكه نقدا وعينا، كان القائم بها أمير طبلخاناه ثم أصبح من أمراء المئات. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ٢١؛ ج٥، ٤٦٢؛ السحماوي، الثغر الباسم، ج١، ٣٩٦.

[٩] ابن تغري بردي، المنهل، ج٥، ٤١.

إبعاد الكثيرين ممن حول السلطان وأصبح متفردًا بصحبته[١]، ثم ما لبث أن ولَّاه نظر الجوالي[٢]، ثم نظر الكسوة[٣]، ثم وكالة بيت المال[٤]، واستمر في العلو حتى وصف مكانته ابن تغري بردي قائلًا: "اجتمعت الكلمة في أبي الخير، وصار هو المشار إليه في المملكة، والمتصرف فيها كيف شاء"[٥].

٢- العلاقات القديمة بالسلطان:

لقد مثَّل ذلك السبب في بروز أرباب الأقلام نسبة ضئيلة، ولكنه في الوقت نفسه كان مرتبطًا بواحد من أقوى الشخصيات في عصر المماليك وهو ناصر الدين البارزي[٦]، كاتب السر[٧] في دولة المؤيد شيخ (٨١٥-٨٢٤ هـ/ ١٤١٢-١٤٢٢م)، وسبب الربط بين الرجلين يرجع إلى فترة الصراع الذي كان بين الناصر فرج بن برقوق (٨٠١-٨١٥ هـ/ ١٣٩٩-١٤١١م) والمؤيد شيخ، فقام ناصر الدين البارزي باتخاذ جانب المؤيد[٨]، فحفظها له، ثم بعد الاستقرار في حكم السلطنة أقره في منصب كاتب السر، وأصبح هو عظيم الدولة، مما جعل مؤرخي العصر يسبغون عليه العديد من الأوصاف التي تصف ذلك مثل وصف ابن تغري بردي له بأنه: "صار هو صاحب الحل والعقد في المملكة"[٩].

---

[١] ابن تغري بردي، المنهل، ج١٢، ٣٢٥.

[٢] ناظر الجوالي، الجوالي هي الجزية المقررة على أهل الذمة، وكان تحصيلها يتم على جهتين الأولى بعاصمة السلطنة في القاهرة والفسطاط، ويسمى القائم بها ناظر الجوالي، والجهة الثانية ما هو خارج عن القاهرة ويحصلها أصحاب الإقطاعات. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ٤٦٢؛ السحماوي، الثغر الباسم، ج١، ٤١١.

[٣] ناظر الكسوة، وناظرها يتحدث عن كسوة الكعبة المشرفة والحجرة النبوية الشريفة، من حيث الأوقاف الموقوفة عليهما، وتدبير مستلزمات صناعة الكسوة. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ٥٧؛ السحماوي، الثغر الباسم، ج١، ٤١١.

[٤] وكالة بيت المال: موضوعها التحدث عن مبيعات ومشتروات بيت المال من أراض وعقارات. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ٣٦؛ السحماوي، الثغر الباسم، ج١، ٤١٤.

[٥] ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج١٢، ٣٢٦.

[٦] ناصر الدين محمد بن محمد بن عثمان البارزي، ت ٨٢٣ هـ/ ١٤٢١م. انظر ترجمته: المقريزي، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق: محمود الجليلي، ج٣، ط١ (دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٢)، ١١٥، ت رقم (١٠٠٠)؛ ابن تغري بردي، المنهل، ج١١، ٧، ت رقم (٢٣٣٠)، السخاوي، الضوء، ج٩، ١٣٧، ت رقم (٣٥٠).

[٧] كاتب السر، هو أهم أصحاب الدواوين من أرباب الأقلام، له اليد الطولى في دواوين الدولة وإداراتها، وخاصة في عصر المماليك الجراكسة، وغلب على اختيار من يتولاه الصفة السياسية أكثر من الناحية العلمية والبلاغية، التي تركت لنائب كاتب السر. وعن هذه الوظيفة بالتفصيل انظر: السحماوي، الثغر الباسم، ج١، ٣٣٣ وما بعدها؛ أشرف محمد أنس، كتب الدساتير في عصر المماليك (القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠١٢)، ٤٧.

[٨] المقريزي، السلوك، ج٤، ق١، ٢١٣؛ ابن حجر، إنباء، ج٢، ٥٠٧، ٥١٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١٣ (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٨-١٩٧٢م)، ١٤٦؛ السخاوي، الضوء، ج٩، ١٣٧.

[٩] ابن تغري بردي، النجوم، ج١٤، ١٦٢؛ المنهل، ج١١، ٨.

٣- أهمية الوظيفة:

لقد شغل أرباب الأقلام العديد من الوظائف داخل دواوين الدولة، ولكن أهم هذه الوظائف التي جعلت من أصحابها ذوي مكانة عظيمة بالدولة هما وظيفتا: ناظر الخاص، وكاتب السر، فهما وظيفتان تؤهلان صاحبيهما لأن يكون قريبًا من السلطان بصفة دائمة، وبصورة تكاد تكون يومية.

فأما وظيفة ناظر الخاص، فهي الوظيفة المنوطة بتعظيم النواحي المالية للسلطان وتلبية كل طلباته المالية المادية والعينية. وقد رفعت هذه الوظيفة متوليها إلى مكانة عالية، ومنحته نفوذًا كبيرًا، ويكفي أن من أصحاب النفوذ كان هناك ثلاثة من نُظَّار الخاص، كريم الدين الكبير[١]، والنشو، وجمال الدين يوسف بن كاتب جكم[٢]. بالإضافة إلى وظيفة كانت حاضرة قبل نشأة وظيفة ناظر الخاص، وهي وكيل السلطان الذي يرعى أموره المادية، وممن شغل هذه الوظيفة وعُرف بقوة النفوذ أحمد بن علي بن عبادة[٣] الذي عرَّفه المقريزي بأنه "هو حينئذ عظيم الدولة المتحدث في سائر أمور المملكة"[٤].

وأما وظيفة كاتب السر، فمن شغلها وعرف بقوة النفوذ: ناصر الدين البارزي، وابنه الكمال البارزي[٥]، وأبو بكر بن محمد بن مزهر[٦] الذين كانوا من أهم رجال الدواوين وأقواهم نفوذًا كما يظهر في تراجمهم، وأحداث التاريخ التي سيُشار إلى بعضها بعد قليل.

٤- الاضطراب السياسي:

لم يكن من الغريب حينما تضطرب الأحوال السياسية أن يصعد نجم بعض أرباب الأقلام، ومنهم على سبيل المثال سعد الدين بن غراب[١] الذى قال عن نفسه "بِأَنَّهُ أَزَال دولة وَأَقَام أُخْرَى ثمَّ أعَاد الأولى من غير حَاجَة لذَلِك،

---

[١] هو كريم الدين بن هبة الله بن السديد المصري، المعروف بالقاضي كريم الدين الكبير ت ٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م، شغل منصب وكيل أموال الناصر محمد، ثم بعد إنشاء منصب ناظر الخاص كان أول ولاته، وكان ذو مكانة كبيرة بدولة الناصر. انظر: الصفدي، الوافي، ج١٩، ٦٦، ت رقم (٧٢١٨)؛ ابن حجر، الدرر، ج٢، ٤٠١، ت رقم (٢٤٩١).

[٢] هو يوسف بن عبد الكريم المعروف بابن كاتب جكم، ت ٨٦٢هـ/ ١٤٥٧م، تولى مناصب الوزارة، وناظر الخاص، وناظر الجيش، وهو من القلائل الذين جمعوا بين وظيفتي ناظر الخاص والجيش. ترجمته بالتفصيل انظر: ابن تغري بردي، المنهل، ج١٢، ٢٢٥، ت رقم (٢٧١٦)؛ النجوم، ج١٥، ٤٦١؛ السخاوي، الضوء، ج١٠، ٣٢٢، ت رقم (١٢١٢)

[٣] هو أحمد بن علي بن عبادة، القاضي شهاب الدين الأنصاري الحلبي، ت ٧١٠هـ/ ١٣١٠م، بدأت علاقته بالناصر محمد بن قلاوون منذ عام ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م، وتولى الوكالة عن أموال السلطان حتى وفاته. انظر: الصفدي، الوافي، ج٧، ١٦٠، ت رقم (٨٦٥)؛ ابن حجر، الدرر، ج١، ٢١٠، ت رقم (٥٤٣)؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ٨٢.

[٤] المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ٨٢.

[٥] هو محمد بن محمد بن عثمان، المعروف بالكمال البارزي، ت ٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م، تولى كتابة السر بعد أبيه ناصر الدين البارزي، ثم أبعد عنها وظل يليها ويتركها حتى وفاته. انظر: ابن تغري بردي، المنهل، ج١١،١٠، ت رقم (٢٣٣١)؛ السخاوي، الضوء، ج٩، ص٢٣٦، ت رقم (٥٨٣).

[٦] هو أبو بكر بن محمد بن مزهر، ت ٨٩٣هـ/١٤٨٧م، سليل أسرة عملت في دواوين الدولة، وتولى جده وأبوه منصب كاتب السر، واستمر فترة طويلة في ولايتها من عام ٨٦٦ : ٨٩٣ هـ/١٤٦١ : ١٤٨٧م. السخاوي، الضوء، ٨٨، ت رقم (٢٣٣).

وَأَنه لَو شَاءَ أَخذ الْملك لنَفسِهِ من غير مَانع"[٢]، وقال عنه ابن حجر: "وكان قد بلغ في المملكة ما لم يبلغه أحد، مات بعلة القولنج الصفراوي بعد أن صار أميرًا مقدم ألف[٣]، وتنقل في الولايات من نظر الخاص والجيش والإستادارية[٤] وكتابة السر وغير ذلك على ما سلف في الحوادث، وكان يدري اللغة التركية مع الدهاء والمكر والمعرفة التامة بأخلاق أهل الدولة، ولقد تلاعب بالدولة ظهرًا لبطن، وخدم عند الأضداد، وعَظُم قدره حتى شاع أنه لا بد أن يلي السلطنة"[٥]. لقد حملت تلك العبارة كثيرًا مما يمكن رصده عن حياة ابن غراب وتحكمه في الدولة، ووصوله إلى درجة كبيرة من النفوذ السياسي، والذي جعله ينجو من العديد من النكبات حتى أصبح ذو قوة نافذة.

وفى عصر الناصر فرج ظهرت شخصية على نفس منوال ابن غراب من التحكم في مفاصل الدولة، وإن فاقته في أمور كثيرة، وهي شخصية جمال الدين يوسف البيري المعروف بجمال الدين الإستادار[٦]، الذي اتسع نفوذه بشكل كبير؛ بسبب انشغال الناصر فرج بالأخطار المحيطة به، ففي تلك الفترة اختلت الأمور في يد الناصر فرج، نتيجة خروج مجموعة من أمراء المماليك عن طاعته، منهم الأمير يشبك الشعباني[٧]، بالإضافة إلى خروج الأمير شيخ المحمودي عليه في بلاد الشام، فأدى ذلك إلى خروج الناصر فرج إلى الشام؛ فانفرد جمال الدين الإستادار بالسلطة بشكل كامل، وقد وصُف تمكن جمال الدين الإستادار من الدولة في تلك الفترة، بأنه ما من أمرٍ جليل أو

---

[١] هو إبراهيم بن عبد الرازق، القاضي سعد الدين الشهير بابن غراب، ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م، تولى العديد من الوظائف في عهد الظاهر برقوق، وابنه الناصر فرج، منها الإستادار، وناظر الخاص، ثم كتابة السر، ثم ولي الأمرة أمير مائة. انظر: المقريزي، درر العقود، ج١، ٩٢، ت رقم (٣٢)؛ ابن تغري بردي، المنهل، ج١، ١٠٤، ت رقم (٤٨)؛ السخاوي، الضوء، ج١، ٦٥.

[٢] السخاوي، الضوء، ج٦٦،١.

[٣] تعددت طبقات الأمراء المماليك إلى أربعة طبقاً لما يملكونه من مماليك تحت إمرتهم، الأولى هي أمير مائة، وهم من يطلق عليهم أمراء الألوف، أي الذين يقودون في القتال ألف مملوك ممن دونه من الأمراء، ثم أمراء الطبلخاناه، وهم من يملكون بين الخمسين والثمانين من المماليك، ويطلق عليهم لقب أمراء الطبلخاناه نتيجة ضرب الطبل على باب بيوتهم من بعد صلاة المغرب كل ليلة، ثم يأتي أمراء العشرات، ثم أمراء الخمسات، ولكل طبقة من هؤلاء الأمراء لهم مخصصاتهم المالية من الإقطاع، ووظائف يتولونها طبقا لرتبهم. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ١٤؛ السحماوي، الثغر الباسم، ج١، ٣٨٤؛ وعن نظام الإقطاع في عصر المماليك انظر:
A.N. Poliak, Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and Lebanon (London: Royal Asiatic Society, 1939).

[٤] هو لفظ فارسي يتركب من كلمتين فارسيتين، الأولى "إستد" ومعناها الأخذ، والثانية "دار" ومعناها الممسك، والمعنى العام لها "المتولي للأخذ"، وصاحب الوظيفة هو المتولي لقبض المال سواء للسلطان أو للأمراء، وهو المتحدث في بيوت السلطان كلها. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ٤٥٧؛ السحماوي، الثغر الباسم، ج١، ٣٩٣.

[٥] ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق: حسن حبشي، ج٢ (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٦٩–١٩٩٨)، ٣٣٠.

[٦] هو يوسف بن أحمد بن محمد، المعروف بجمال الدين الإستادار البيري، ت ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م. تولى وظائف الإستادار وناظر الخاص والوزارة في عهد الناصر فرج بن برقوق، وعلت مكانته بعد موت ابن غراب. انظر: المقريزي، درر العقود، ج٣، ٥٦٢، ت رقم (١٤٥٩)؛ ابن تغري بردي، المنهل، ج١٢، ١٨٩، ت رقم (٢٦٩٤)؛ السخاوي، الضوء، ج١٠، ٢٩٤، ت رقم (١١٥٧).

[٧] الأمير يشبك الشعباني، الدوادار الكبير، ثم أتابك العسكر، ت ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م، أحد مماليك الظاهر برقوق، وكان اللالا للناصر فرج، وساعده على الانفراد بعرش السلطنة، ثم ما لبث أن وقع الخلاف بينهما، فذهب يشبك إلى الشام مع مجموعة من الأمراء خروجًا على السلطان وانتهى الأمر بقتله. انظر بالتفصيل: المقريزي، السلوك، ج٤، ق١، ٥٤–٥٨؛ ابن تغري بردي، المنهل، ج١٢، ١١٩، ت رقم (٢٦٥٦).

حقير، من مصالح الكافة، الخاصة والعامة، إلا ويمضي بأمره، مع قيامه بالتخلص من كل من يشك فيه أنه ينافسه لدى السلطان[١]، وبذلك استطاع أن يحوز تلك المكانة العالية في الدولة.

ثانيًا– مظاهر نفوذ أرباب الأقلام:

تعددت مظاهر نفوذ أرباب الأقلام، وكانت ما بين سيطرة على السلطان وقراراته، أو شفاعة للكثيرين من أرباب الدولة، وخاصة أمراء المماليك، على الرغم من أنهم هم مصدر القوة الأول في الدولة، أو قيامه بما يحلو له وقتما يريد، أو استقراره في مكانته على الرغم من وجود المعاندين والمنافسين له.

فيمكن رؤية مظاهر التحكم في السلطان وقراراته، في كل من ابن غراب، وناصر الدين البارزي، فابن غراب، في مرحلته الأخيرة أصبح هو المتحكم في السلطان بل ترفع عن ولاية بعض الوظائف لأنه يظن أنها أقل مما وصل إليه من نفوذ، وخاصة بعد أن قام بتوجيه السلطان الناصر فرج إلى الاختفاء عن الأعين في بيته، وقام بالمساهمة في تولي أخيه الصغير عبد العزيز السلطنة[٢]، ثم ما لبث أن أعاد الناصر فرج إلى عرشه، فأوكل إليه الناصر أمور المملكة بجميعها، وفوض إليه ما وراء سريره[٣]، حتى أن مؤرخي العصر ذكروا أنه في مرض موته كان أمراء المماليك الكبار يدخلون عليه لتلقي تكليفاته، وهم وقوف لم يجسر أحدهم على الجلوس مهابة له "ما لم يعهد مثله لملك مستبد"[٤].

أما ابن البارزي فكانت يده مطلقة في الدولة، بل أن العلاقة تعدت مرحلة العمل، إلى علاقة شخصية وثيقة، تمثلت في نزول المؤيد في كثير من الأحيان من القلعة إلى بيت ناصر الدين البارزي، والبقاء عنده لعدة أيام[٥]، ومن شواهدها أيضًا أن ابن السلطان الصارم إبراهيم[٦]، الذي قاد حملة في الشمال ضد التركمان، حينما وصل إلى مصر، خرج لاستقباله أرباب الدولة، وعند السلام على ابن البارزي، نزل الأمير عن فرسه، وذلك لعلمه "من تمكنه عند أبيه"[٧]، بل أن بعض مؤرخي العصر قد أشاروا إلى أن ابن البارزي كان السبب المباشر في موت إبراهيم مسمومًا، بعد أن أوغر صدر أبيه عليه فدس له السم[٨] بعد أن علم أن الصارم إبراهيم يتوعده–أي البارزي–بالقتل[٩].

[١] المقريزي، درر العقود، ج١، ٥٦٣–٥٦٦.

[٢] ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٩م. ابن تغري بردي، المنهل، ج٧، ٢٧٢، ت رقم (١٤٣٢).

[٣] المقريزي، درر العقود، ج١، ٩٧.

[٤] المقريزي، درر العقود، ج١، ٩٨؛ السخاوي، الضوء، ج١، ٦٦.

[٥] ابن حجر، إنباء، ج٣، ١٧٦، ١٩٦، ٢٠٣.

[٦] هو إبراهيم بن السلطان المؤيد شيخ، ت ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م، انظر: ابن تغري بردي، المنهل، ج١، ص٧٨، ت رقم (٣٣).

[٧] ابن تغري بردي، المنهل، ٨١.

[٨] لقد أشار العديد من المؤرخين بتلك الحادثة، بل أن بعضهم قد أشار صراحة إلى ضلوع المؤيد شيخ في قتل ابنه نتيجة وشايات نقلت إليه عن طريق كاتب سره ناصر الدين البارزي. انظر بالتفصيل: ابن تغري بردي، النجوم، ج١٤، ٨٩، ٩٦، هـ٢، نقلًا عن بدر الدين العيني؛ السخاوي، الضوء، ج١، ٥٣؛ ابن إياس (محمد بن أحمد)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٢، تحقيق: محمد مصطفى (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٨٤)، ٥١–٥٣؛ حياة ناصر الحجي، الأوضاع السياسية والاقتصادية في حكم المؤيد شيخ في سلطنة المماليك، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مج٩، ع٣٦ (١٩٨٩): ٨–٥٥، ٤١.

[٩] الصيرفي (الخطيب الجوهري علي بن داوود)، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق: حسن حبشي، ج٢ (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٧١)، ٤٧٤.

وعلى جانب آخر، فإن تمكن أرباب النفوذ قد ظهر جليًّا في شفاعة بعضهم في رفعة أو انحطاط شأن بعض أرباب الدولة، حتى من أمراء المماليك، فيذكر عن ابن البارزي أنه كان "شديدًا على أعدائه، مبالغًا في نفع أصحابه وأصدقائه"[١]. بل إن جمال الدين يوسف بن كاتب جكم، كانت له أيادٍ بيضاء على العديد من أمراء المماليك، فالسلطان الظاهر جقمق عام ٨٥١هـ/ ١٤٤٧م قام بتعيين الأمير برسباي الساقي[٢]، في نيابة الإسكندرية[٣]، بسفارة الصاحب جمال الدين يوسف، وبالمثل فعل مع الأمير تنم من عبد الرازق[٤]، بعد عزله من نيابة حلب سنة ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م، فقام السلطان بإكرامه وتقريبه منه، وأعطاه إقطاعًا كبيرًا، بعناية الجمالي يوسف لصحبةٍ كانت بينهما[٥].

بالإضافة إلى ذلك، فإن قدرة أصحاب النفوذ على الاستمرار في مكانتهم وسطوتهم، على الرغم من وجود المنافسين والمعاندين لهم مظهرًا دالًّا على قوة ما وصلوا إليه من تمكن، ونموذج على ذلك، الجمالي يوسف بن كاتب جكم، الذي استمر على وضعه داخل الدولة من المهابة والمكانة الرفيعة على الرغم مما ناله من منافسة أبو الخير النحاس، والتي أدت إلى تغريمه مائة ألف دينار[٦]، إلا أنه حافظ على هدوئه ورباطة جأشه إلى أن تم التخلص من منافسه[٧]. وقد وصف ابن تغري بردي مكانته تلك بعد موته عام٨٦٢هـ فقال: " ولم يخلف بعده مثله رئاسة وسؤددا بلا مدافعة، وهو آخر من أدركنا من رؤساء الديار المصرية؛ لأنه كان فردا في معناه، لعظم ما ناله من السعادة والوجاهة ووفور الحرمة، ونفوذ الكلمة والعظمة الزائدة، وكثرة تردد الناس إليه، وأعيان الدولة وأكابرها إلى بابه، بل الوقوف في خدمته، وهذا شيء لم ينله غيره في الدولة التركية، مع علمي بمنزلة كريم الدين الكبير عند الناصر محمد بن قلاوون، وبما ناله سعد الدين إبراهيم بن غراب في الدولة الناصرية فرج، ثم بعظمة جمال الدين يوسف البيرى الأستادار في دولة الناصر فرج أيضًا، ثم بخصوصية عبد الباسط بن خليل الدمشقى في دولة الأشرف برسباى، ومع هذا كله ليس فيهم أحد وصل إلى ما وصل إليه جمال الدين هذا"[٨].

وممن يشار إليه برسوخ مكانته بالدولة، ابن مزهر[٩] كاتب السر منذ عام ٨٦٦ ـ٨٩٣ هـ/ ١٤٦١ـ١٤٨٧م، الذي استمر على حاله من التمكن والنفوذ في الدولة، ومثال ذلك بقاؤه في وظيفته لأكثر من ٢٧ عامًا، فقال عنه السخاوي: " ما ناكده أحد فأفلح "[١٠].

---

[١] درر العقود، ج٣، ١١٦.

[٢] هو برسباي بن عبد الله المؤيدي الساقي، ت ٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م، انظر: ابن تغري بردي، المنهل، ج٣، ٢٧٩، ت رقم (٦٥٣)؛ السخاوي، الضوء، ج٣، ١٠، ت رقم (٤٣).

[٣] ابن تغري بردي، النجوم، ج١٥، ٣٧٤.

[٤] تنم بن عبد الله من عبد الرازق، أمير مجلس، ت ٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م، انظر: ابن تغري بردي، المنهل، ج٤، ١٠٥، ت رقم (٨٠١).

[٥] ابن تغري بردي، النجوم، ج١٥، ٣٨٥.

[٦] ابن تغري بردي، حوادث، ج١، ٢٥٨.

[٧] ابن تغري بردي، المنهل، ج١٢، ٢٢٦–٢٢٧.

[٨] ابن تغري بردي، النجوم، ج١٦، ١٩٧.

[٩] هو أبو بكر بن محمد بن محمد بن أحمد بن مزهر، ت ٨٩٣هـ، انظر ترجمته: السخاوي، الضوء، ج١١، ٨٨، ت رقم (٢٣٣)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ٢٤٩.

[١٠] السخاوي، الضوء، ج١١، ٨٩.

ثالثًا– الصراع بين أصحاب النفوذ ونهاياتهم:

١– الصراع بين أرباب الأقلام وأرباب السيوف:

من أهم الأشياء التي يمكن أن تستخلص من دراسة أحوال أصحاب النفوذ من أرباب الأقلام، أن الصراع بين العديد من الشخصيات الطامحة، كان واضحًا فيما آلت إليه أحوال بعضهم، من ضياع ما كان للشخص من نفوذ ومال، وهذه الصراعات لم تكن فقط بين متنافسين من نفس النوعية، ولكن كانت في بعض الأحيان بين صاحب قلم، وصاحب سيف من الأمراء المماليك.

فأرباب السيوف من أمراء المماليك كانوا أصحاب مكانة كبيرة وعظيمة داخل الدولة، فوضعيتهم داخل السلطنة باعتبارهم القوة السياسية الأولى، تسمح لهم أن يظهر بينهم من يكون ذو مكانة وقوة في الدولة، وخاصة إذا كان من عبيد السلطان أو خشداشيته [١] قبل السلطنة، ولذلك لا نعدم في كل عهود السلطنة من وجود أحد الأمراء المماليك كان صاحب الحل والعقد، أو مدبر الدولة وعظيمها[٢].

ولعل ما يلفت النظر أن وجود هذه النوعية من الأمراء ظهر أكثر في العصر البحري، ويمكن تفسير ذلك بأن حكم المماليك كان لا يزال في بدايته، وكانت دائرة الحكم مغلقة عليهم، وفي الوقت نفسه كانت الصراعات بينهم على أشدها، مما جعل تشديد قبضتهم على أمور الدولة أمرًا لا تهاون فيه[٣]، ولذلك كان السماح بدخول عنصر جديد داخل دائرة النفوذ والسلطة غير مستحب، وهذا ما ظهر جليًّا في مقاومتهم للنشو أبرز وأقوى أرباب الأقلام في العصر البحري، فقد وقف أمام تغولاته – في الظلم الذي كان يوزعه على الكافة، عامة وأمراء – الأمير قوصون الناصري[٤]، أحد أهم أمراء المماليك في عهد الناصر محمد؛ ولذلك خشي الناصر من نقمة الأمراء عليه بسببه، وقام بعزله ونكبته[٥].

على الجانب الآخر، في العصر الجركسي، نجد أن عدد أصحاب النفوذ من أرباب الأقلام كان في ازدياد، ولعل ذلك راجعًا إلى الاختلال في بنية تربية المماليك وجلبهم، والرابطة التي تربطهم معًا. فقد حدث متغير في عهد الظاهر برقوق عندما سمح للمماليك بالمبيت خارج طباق[٦] القلعة–وكان ذلك أمرًا محرمًا عليهم من قبل–والزواج من

---

[١] هو لفظ فارسي مفرده "خجداش" أو "خشداش"، ويعني رابطة الزمالة بين المماليك التي تكونت خلال مراحل حياتهم، السيد الباز العريني، المماليك (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٦٧م)، ١٤١.

[٢] انظر الجدول نهاية البحث.

[٣] سعيد عاشور، المجتمع المصري، ٢٨.

[٤] هو قوصون بن عبد الله الناصري الساقي، ت ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م، من أكبر مماليك الناصر محمد بن قلاوون. انظر: ابن حجر، الدرر، ج٣، ٣٤٢، ت رقم (٣٢٨٢)؛ ابن تغري بردي، المنهل، ج٩، ١٠٧، ت رقم (١٩٠٠)؛ حياة ناصر الحجي، الأمير قوصون، صورة حية لنظام الحكم في سلطنة المماليك، المجلة العربية للعلوم الانسانية، مج٨، ع٣٢، الكويت (١٩٨٨): ٦–٥٥؛ وعن علاقة الأمير قوصون بالنشو، انظر: مسعد الكتبي، ناظر الخاص، ١٩٧.

[٥] المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ٤٧٧.

[٦] الطباق جمع طبقة، يقصد بها القاعات المتجاورة بالقلعة، وكل قاعة بمقام حارة، وبها عدة مساكن، وهي التي يربى بها صغار المماليك، وكانت القاعة الواحدة تسع حوالي ألف مملوك، وبلغ عددها اثنا عشر قاعة. المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، ج٣ (لندن: مؤسسة الفرقان للتراث، ٢٠٠٤م)، ٦٩١، هـ١؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، نشر بول راويس (باريس: ١٨٩٤م)؛ ٢٧.

المصريات[١]، ثم أعقب ذلك التوسع في شراء المماليك كبار السن المعروفون بالجلبان[٢]، فتقطعت أواصر الرابطة التي ربطت المماليك باعتبارهم فئة واحدة على قمة هرم السلطة. فأصبح المعول عليه في تحقيق ما يرنو إليه السلاطين لتثبيت حكمهم هم أرباب الأقلام[٣]؛ لأنهم ليس لهم مطمع في السلطنة، وبالتالي مأمون جانبهم في تلك الناحية عكس المماليك الذين أصبح التآمر على السلاطين والتمرد عليهم هوايتهم المفضلة[٤].

وليس معنى ذلك عدم ظهور شخصيات من أرباب السيوف بين أصحاب النفوذ؛ كما أن ذلك لم يمنع من الصدام بين أرباب السيوف المتطلعين إلى النفوذ وأرباب الأقلام من أصحاب النفوذ، فعلى سبيل المثال نجد أن زين الدين عبد الباسط قد اصطدم باثنين من أرباب السيوف، وهما جانبك الدوادار[٥] الأشرفي[٦]، عظيم دولة الأشرف برسباي، ثم بعد موته كان منافسه عند الأشرف برسباي جوهر القنقبائي الخازندار[٧].

فجانبك الدوادار الأشرفي، أحد مماليك السلطان الأشرف برسباي المقربين إليه، فرقَّاه من أمير عشرة إلى أمير طبلخاناه ودوادارًا ثانيًا، وعظم أمره في دولة الأشرف برسباي، التي كان يرجو فيها زين الدين عبد الباسط أن تدوم سيطرته على الأشرف طالما يقوم على تسهيل حصوله على المال، لكن وجود جانبك أعاقه عن ذلك بتحكمه في الدولة، فقد كانت سلطته طاغية حتى أنه وهو الدوادار الثاني، لم يكن للأمير أزبك[٨] الدوادار الكبير أي دور، وأن أمور الدوادارية هو الذي يقوم بها، بالإضافة إلى أن كبار موظفي الدولة مثل الوزير، وناظر الخاص، ينزل كل منهما بعد الخدمة السلطانية إلى داره للعمل لديه كأنهما من الكتبة الصغار، وكذلك كان يفعل زين الدين عبد

---

[١] المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ٦٩٣.

[٢] ظل قوام الدولة المملوكية قائما على إحضار المماليك صغار السن، وتربيتهم بمصر تربية دينية وعسكرية صارمة، إلى ان تغير ذلك النظام مع قيام سلاطين الدولة والأمراء بجلب مماليك كبار في السن لم يشبوا على تعاليم المماليك السابقة من الفروسية والولاء للسلطان والدولة، فعاثوا فسادا وتم تمييزهم عن المماليك الصغار باسم "الجلبان"، سعيد عاشور، المجتمع المصري، ٣١.

[٣] قاسم عبد قاسم، عصر سلاطين المماليك، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٤)، ١٧-١٨؛ أحمد عبد الكريم سليمان، العنصرية وأثرها في الجيش المملوكي، ط١ (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٨٨)، ١١٠.

[٤] طبابي بلقاسم، ظاهرة عصيان المماليك السلطانية في القاهرة المملوكية في العهد الجركسي، بحث منشور في أشغال الملتقى الدولي الخامس حول الحركات الاجتماعية في العالم العربي الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة تونس (٢٠٠٨م)، ٢٢٧-٢٧٤.

[٥] هي كلمة من لفظتين، الأولى عربية "الدواه"، والثانية فارسية "دار" بمعنى ممسك الدواة، ومن مهامه أن يُدخل على السلطان قصاد الملوك والدول، وقراءة الرسائل، وكانت هذه الوظيفة حتى عهد الناصر حسن بن محمد بن قلاوون (٧٤٨ – ٧٦٢ هـ / ١٣٤٦ – ١٣٦٠م) يتولاها أمير طبلخاناه، إلى أن تولاها الأمير طغيتمر ويكتب طغاي تمر النجمي، عن ترجمته انظر: ابن تغري بردي، المنهل، ج٦، ٤١١، ت رقم ١٢٥٢) فأصبح متوليها من الأمراء المقدمين في مصر، وله أتباع يحمل كل منهم لقب دوادار، ويبلغ عددهم عشرة. السحماوي، الثغر الباسم، ج١، ٣٩٠.

[٦] هو جانبك بن عبد الله الأشرفي الدوادار الثاني، ت ٨٣١هـ، انظر: ابن تغري بردي، المنهل، ج٤، ٢٣٢، ت رقم (٨٢١).

[٧] ابن تغري بردي، النجوم، ج١٥، ٥٥٣.

[٨] هو أزبك بن عبد الله الظاهري الدوادار الكبير، ت ٣٣هـ، كان من الأمراء الخارجين على المؤيد شيخ مع نوروز، ثم أفرج عنه، وترقى في عهد الظاهر ططر، والأشرف برسباي، حتى صار الدوادار الكبير، ثم قبض عليه الأشرف ونفاه إلى القدس بطالًا ومات بها. ابن تغري بردي، المنهل، ج٢، ٣٣٨، ت رقم (٣٨٧).

الباسط مداراة له وخوفا من نفوذه لدى السلطان، وقال عن ذلك ابن تغري بردي: " كان عبد الباسط وغيره بين يديه كالأغنام في حضرة الراعى"[١].

وكذلك كان حال الزيني عبد الباسط، مع جوهر القنقبائي، الذي تولى وظيفة الخازندار للسلطان الأشرف برسباي وأصبح ذو مكانة مرتفعة لديه، "وعظم في الدولة، ونالته السعادة، وحظي عند الأشرف، وانقاد إليه بكليته، وكثر ترداد الناس إلى بابه، بل صار هو صاحب العقد والحل، والمشار إليه في الممالك" [٢]، ولكي يحفظ لنفسه مكانته عند الأشرف انقاد لجوهر انقياداً تامًّا، ومع ذلك لم يسلم منه "فكان عليه أدهى وأمر، ولا زال به حتى أوقعه في أمور وغرامات"[٣].

ذاك مثال للصراع الذي كانت فيه الغلبة لأرباب السيوف، وهو أمر يبدو طبيعيًّا بالنسبة لمكانة كل من الطرفين، لكن ذلك لم يمنع أن تكون هناك جولة تغلب فيها أحد أرباب الأقلام على أمير من أرباب السيوف، وذلك تمثل في نجاح أبو الخير النحاس في إبعاد أحد مماليك السلطان جقمق، وأحد عظماء دولته من وظيفته، وهو جانبك الدوادار نائب جدة [٤]، وذلك عام ٨٥٣هـ، بعد إبعاده عن وظيفة مشد جدة أو نائب جدة [٥]، لم تذكر المصادر تفصيل ذلك الأمر، إلا أن أبا الخير النحاس قد أوغر صدر السلطان على مملوكه، فأمر بحبسه وتغريمه ثلاثين ألف دينار[٦].

٢- الصراع بين أرباب الأقلام وبعضهم:

أما عن صراعات أصحاب النفوذ من أرباب الأقلام فيما بينهم، فكان هناك في العموم صراع فيما بين أرباب الأقلام وبعضهم البعض، أما فيما بين أصحاب النفوذ منهم، فيبرز الصراع الذي كان بين أبي الخير النحاس، وجمال الدين ناظر الخاص عصر السلطان الظاهر جقمق، كمثال حي لما بين ذوي النفوذ من أرباب الأقلام. وكان كليهما ممن وصف بالتمكن، وإن كانت شهرة الجمالي يوسف أكثر وأرسخ، وفي ذلك قال ابن تغري بردي: "وفي يوم الإثنين سادسه، لبس الجمالي ناظر الخاص خلعة الرضى بعد أن ألزم الجمالي المذكور بحمل مئة ألف دينار للخزانة الشريفة، وكل ذلك بواسطة أبي الخير النحاس، فإنه لم يزل يوغر خاطر السلطان عليه ويطمعه في ماله، ويحسن له القبض عليه والمصادرة له، حتى أذعن له وانقاد لمقالته، ومن حينئذ أخذ أمر الجمالي في انحطاط، وصار أبو الخير هو صاحب الحل والعقد في الممالك، واستفحل أمره بهذه الواقعة كثيرًا وعظم وضخم، فإن أبا

---

[١] ابن تغري بردي، النجوم، ج١٥، ٥٥٤.

[٢] ابن تغري بردي، المنهل، ج٥، ٤٠.

[٣] ابن تغري بردي، النجوم، ج١٥، ٥٥٣.

[٤] هو الأمير جانبك الظاهري، المعروف بنائب جده، ت ٨٦٧ هـ/ ١٤٦٢م، أحد مماليك الظاهر جقمق، كان ذو مكانة عالية في الدولة حتى قتل في عهد الظاهر خشقدم (٨٦٤-٨٧١هـ/ ١٤٦٠-١٤٦٧م) بتدبير منه. انظر: ابن تغري بردي، المنهل، ج٤، ٢٤٣، ت رقم (٨٢٩)؛ السخاوي، الضوء، ج٣، ٥٧، ت رقم (٢٣٥).

Richard Mortel, Grand "Dawadar" and Governor of T. Jedda: The Career of the Fifteenth Century Mamluk Magnate Ganibak al-Zahir, *Arabica, T. 43, Fasc. 3* (Sep., 1996): 437-456.

[٥] عن وظيفة نائب جدة في عصر المماليك الجراكسة. انظر: أشرف محمد أنس: دراسات في التاريخ والحضارة (القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠١٢).

[٦] ابن تغري بردي، النجوم، ج١٥، ٣٩٧، ٤٠٣؛ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين، ج١، ط١ (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٠-١٩٩١)، ٢١٤؛ وقد ذكر في المنهل أن ذلك كان عام ٨٥٥ هـ وهو خطأ، ج٤، ٢٤٥.

الخير كان قد تقدم على جميع أرباب الدول وأبادهم ما خلا ناظر الخاص هذا، فإن الكلمة كانت قد بقيت بينهما في الدولة وصارا كفرسي رهان، وبقي كل منهما يخالف الآخر فيما يرومه، الآن قد انحصرت الكلمة في أبي الخير النحاس"[١]. ومع كون هذا الأمر أثر لبعض الوقت على الجمالي يوسف، إلا أنه ما لبثت الأمور أن صفت له بعد أن تخلص السلطان الظاهر جقمق من النحاس بنفيه، ثم حين عاد رجع على غير الحال التي كان عليها حتى توفي[٢].

٤- مشهد النهاية ودور السلطان فيه:

ومن هذه النقطة يمكن تحليل مشهد النهاية لكثير من ذوي النفوذ من أرباب الأقلام، وما إذا كانت نهايتهم مرتبطة بنهاية السلطان الذي كان عز نفوذهم في عهده، أم أن هناك نهايات كان أبطالها السلاطين أنفسهم، وهو ما يحتم ترتيب مرتبة ذوي النفوذ من حيث نهايتهم على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: هم ذوي النفوذ القوي الذي شهد به الجميع بحيث كانت مرتبتهم مضرب الأمثال في تحكمهم بالدولة من جميع جهاتها، وانتهت حياتهم نهاية طبيعية دون أن يتعرضوا للقتل، ويمثل ذلك النوع ابن غراب، وناصر الدين البارزي، والجمالي يوسف ناظر الخاص، والكمال البارزي، وابن مزهر. على الرغم من أن بعضهم تعرض في سبيل الوصول أو البقاء على هذه الحالة من القوة إلى محن شديدة، إلا أنهم استطاعوا النجاة بأنفسهم إلى النهاية محتفظين بموقعهم المميز بالدولة.

المرتبة الثانية: هم ذوي النفوذ الذين كانوا يحققون للسلاطين مبتغاهم من الشره المالي، وحينما وضُع السلاطين أمام الاختيار بين هؤلاء وبين تسكين الأحوال بسبب غضب العامة أو الأمراء من تلك الشخصية، بادروا بالتخلص منهم بالشكل الذي يحفظ لهم هدوء الأحوال، ومن يمثل هذه النوعية النشو، وأبي الخير النحاس.

فالنشو حاول الناصر أن يحتفظ به لأكثر فترة ممكنة إلا أن أمراء المماليك قد بلغ بهم الحنق أن هددوه بقتله، بل أن الناصر محمد حينما أرسل للأمير تنكز[٣] نائب الشام يستشيره في وضع النشو قال: "وأنه قد بغضه أهل الدولة كلهم، مع كثرة نفعه لي"[٤]، إلا أن الحل كان التخلص من النشو بقتله، وهذا ما تم في نهاية المطاف.

وعلى النهج نفسه سار الظاهر جقمق مع أبى الخير النحاس، فقد استمر يعتمد عليه طالما كان نافعا له، إلا أن الأمر خرج عن سيطرة السلطان بعد أن تعرض أبو الخير النحاس للضرب على يد العامة والمماليك على حد سواء، ثم ازداد الوضع سوءًا بتحيز السلطان له ورفضه تسليمه للمماليك الثائرين، ثم لم يجد بدًّا من إبعاده ونفيه عن مصر

---

[١] ابن تغري بردي حوادث الدهور، ج١، ٢٥٨.

[٢] ابن تغري بردي، المنهل، ج١٢، ٣٣٥.

[٣] هو تنكز بن عبد الله الحسامي الناصري، ت ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م، كان مملوكا للسلطان المنصور لاجين (٦٩٦ – ٦٩٨ هـ/ ١٢٩٦ – ١٢٩٨م) ثم من بعده للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، تولى نيابة دمشق من عام ٧١٢: ٧٤٠ هـ، كان مقربا للسلطان الناصر محمد، وقامت بينهما مصاهرة، إلا أن ذلك لم يحل بين شك الناصر به وسعي الساعين ضده، حتى تم القبض عليه ومصادرته عام ٧٤٠ هـ، وسجنه بالإسكندرية حتى مات عام ٧٤١هـ. عن حياته بالتفصيل انظر: الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ١١٦، ت رقم (٥٢٢)؛ ابن تغري بردي، المنهل، ج٤، ١٥٦، ت رقم (٧٩٧)؛ ومن الدراسات الحديثة انظر: حياة ناصر الحجي، الامير تنكز الحسامي نائب الشام في الفترة ٧١٢ – ٧٤١هـ، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية ١، الرسالة ٤ (١٩٨٠): ٣ – ٧٦.

[٤] المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ٤٧٦.

بعد نصيحة المقربين: "يا مولانا السلطان، مثل المقدم وأبي الخير في خدمة السلطان كثير، ويجبر السلطان خواطر مماليكه بإبعادهما، يعني إبعاد أبي الخير إلى الحجاز" [١]. فظل مسجونًا منفيًّا في طرسوس ثم طرابلس عدة سنوات، حتى عاد للقاهرة منزويًا بدون وظيفة كما كان من قبل حتى مات[٢].

أما المرتبة الثالثة: فهي شخصيات كان للسلاطين رأي سلبي عنها، إما نتيجة تعامل سابق قبل أن يلي السلطان الحكم فحفظها في نفسه ثم عاقب صاحبها عليها، أو أن صاحب النفوذ قد قام بفعل شخصي تجاه السلطان كانت عقوبته لديه تعني القتل. وهذه الشخصيات يمثلها، عبد الكريم الكبير، وزين الدين عبد الباسط، وجمال الدين الإستادار.

فعبد الكريم الكبير ناظر الخاص، على الرغم من أنه كانت له مكانة في الدولة كوصف اليافعي:" وإليه الحل والعقد، بلغ من الرتبة ما لا مزيد عليه"[٣]، إلا أن الناصر محمد قبض عليه ثم قتله في محبسه، وفسر ذلك المؤرخون بأن الناصر محمد كان يُحمّل كريم الدين جزءا من سوء المعاملة التي تلقاها في سلطنته الأولى، حيث كان يقتر عليه في الأموال[٤]، أما السبب المباشر فهو إغداق كريم الدين الكبير بكل صنوف المال والخلع والهدايا على المماليك وأرباب الدولة، حتى أن الناصر محمد رأى أن ذلك يجعلهم ينظرون إليه نظرة تصغير، كونه لا يعطيهم مثله[٥]، فقام بالقبض عليه ونفاه إلى القدس والشوبك، ثم حبسه في أسوان إلى أن وجد مشنوقًا [٦].

أما زين الدين عبد الباسط، فكان الأمر مختلف عن ذلك فقد ذكر سبط ابن العجمي سبب انحراف الظاهر جقمق عليه وعزله ونفيه، بسبب غريب دفع الزيني عبد الباسط ثمنه باهظا له، فقد ذكر " أنه لما كان الأشرف برسباي في سلطنته كان الزيني لا يلتفت إلى الظاهر ولا يوقره ولا يعظمه، بل كان يهزأ به فيوغر صدره عليه، فلما ولي السلطنة انتقم منه" [٧].

ولقد بقى لزين الدين عبد الباسط أمل في العودة للمكانة التي كان عليها، وبالفعل عاد للقاهرة، وظن الناس أنه قد رجع إلى وظائفه، وتخوف أصحاب الوظائف من رجوعه، فظل من غير وظيفة إلى أن مات ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م[٨].

أما ما حدث مع جمال الدين الإستادار من مصادرة وقتل، كان سببه الرئيس ممالأة جمال الدين للأمراء الخارجين على الناصر فرج بن برقوق، وهم نائب الشام شيخ المحمودي ومن انضم إليه من معسكر الناصر فرج،

---

[١] ابن تغري بردي، المنهل، ج١٢، ٣٢٩.

[٢] ابن تغري بردي، المنهل، ج١٢، ٣٣٥.

[٣] اليافعي (عبد الله بن أسعد بن عبي)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق: خليل المنصور، ج٤، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧)، ٢٠٤.

[٤] الصفدي، الوافي، ج١٩، ٦٦.

[٥] المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ٢٤٤-٢٤٥.

[٦] الصفدي، الوافي، ج١٩، ٧٠.

[٧] سبط بن العجمي (أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خليل)، كنوز الذهب في تاريخ حلب، تحقيق: شوقي شعث، وفالح البكور، ج٢، ط١ (سوريا، حلب: دار القلم العربي، ١٩٩٧)، ١٥٦.

[٨] ابن حجر، إنباء، ج٤، ٢١٧.

وقام بمدهم بالمال، ومنعه عن الناصر، فتمهل الناصر حتى عاد إلى القاهرة فقبض عليه وصادره وقتله ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م [١].

رابعًا- ألقاب ذوي النفوذ بين أرباب السيوف وأرباب الأقلام:

تعد الألقاب التي أطلقت على عظماء الدولة وأصحاب النفوذ سواء كانوا من أرباب السيوف أو أرباب الأقلام، في دولة المماليك بشقيها البحري والجركسي، من الدلالات على ما وصل إليه هؤلاء من تمكن في الدولة، وللتعرف سريعًا على الألقاب التي أطلقها مؤرخو ذلك العصر على هذه الشخصيات، يبرز لقب "عظيم الدولة" والذي عنون به هذا البحث، بجانب ألقاب مثل "عظيم الدولة ومدبرها"، و"مدبر الدولة"، و"صاحب الحل والعقد"، و"صاحب العقد والحل"، و"حاكم الدولة ومدبرها"، و"عزيز المملكة "، و"رئيس المملكة "، بالإضافة إلى عبارات دالة وليست لقبًا مثل " تمكن من الدولة "، و"عظيم دولته"، و"ذا تمكن في الدولة"، و"صاحب الأمر والنهي"، و"صاحب حلها وعقدها" [٢].

ومن خلال هذه الألقاب، بالإضافة إلى تحليل الجدول المرفق، يمكن تحديد عدة نقاط فارقة في دلالة هذه الألقاب على أصحابها، والتي أظهرت ما يلي:

وصل عدد من أطلقت عليه هذه الألقاب والنعوت من أرباب السيوف خمسة وثلاثون في العصر المملوكي، منهم في عصر المماليك البحرية سبعة عشر، وفى عصر الجراكسة ثمانية عشر، ووصل عدد أصحاب النفوذ من أرباب الأقلام أحد عشر، أربعة منهم في عصر المماليك البحرية وسبعة في عصر الجراكسة.

ويعد لقب "عظيم الدولة" أكثر الألقاب استخدامًا للتعبير عن النفوذ القوي لأرباب الأقلام بلغ ست مرات، وكان استخدامه لأرباب السيوف ثماني مرات، وكان في الغالب أصحابه من الأمراء الذين كانت لهم كلمة مسموعة بصفة غير رسمية، وعلى الرغم من أنه يعطي نفس الدلالة اللفظية على نفوذ صاحبها إلا أن دلالاته الواقعية تختلف فيما بينهما، فعلى حين كل من أطلق عليه اللقب من أرباب الأقلام كان بحق ممن يشار إليهم بعظم النفوذ مكانة ووظيفة في دواوين الدولة، على الجانب الأخر أن معظم من لقب به من أرباب السيوف قد شغل مرتبة ووظيفة وسطى كأمير مملوكي، فكانوا على مرتبة أمير طبلخاناه [٣]، وليس أمير مئة [٤]، بالإضافة إلى أن هذه الشخصيات تظهر حين استقرار الدولة، وعدم وجود تنافس على السلطة، مثل الأمير جانبك الأشرفي، وجان بك المؤيدي [٥]،

---

[١] عن ذلك بالتفصيل انظر: المقريزي، درر العقود، ج٣، ٥٦٦ -٥٧٠؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٣، ٩٣-٩٥.

[٢] عن هذه الألقاب ومن أطلقت عليه: انظر الجدول نهاية البحث.

[٣] أمراء الطبلخاناه: هم المضاف إلى كل منهم أربعون مملوكًا، وهو الذى كانت تدق الطبلخاناه (الطبل) على بابه، وعددهم لا ضابط له. السحماوي، الثغر الباسم، ج١، ٣٨٥.

[٤] أمير مائة: كل أمير مقدم على ألف فارس، ومضافاته مائة فارس، وعددهم منذ عهد المؤيد شيخ يبلغ ٢٤ أميرًا يشغلون الوظائف الكبرى. السحماوي، الثغر الباسم، ج١، ٣٧٩.

[٥] هو جان بك المؤيدي الدوادار، ت ٨١٧هـ/ ١٤١٤م، أحد مماليك المؤيد شيخ، وكان مقربا منه، فرقاه سريعًا من أمير عشرات إلى أمير طبلخاناه، وصار أحد كبار دولته. انظر: ابن تغري بردي، المنهل، ج٤، ٢٢١، ت رقم (٨١٧)؛ السخاوي، الضوء، ج٣، ٦٠، ت رقم (٢٤٣).

وعلى الرغم من أن هناك ممن أطلق عليهم كانوا أمراء ائة إلا أنه في وقت إطلاق اللقب كانوا في مرتبة وسطى مثل جانبك نائب جدة، وابن البابا [١].

أما أكثر الألقاب ذكرا في المصادر التاريخية لقب (مدبر المملكة) أو (مدبر الدولة)، وهما لقبان رسميان أكثر منهما لقبان فخريان تلقب بهما واحد وعشرون من أرباب السيوف وخمسة من أرباب الأقلام وكان إطلاقه على أرباب السيوف يتم بصفة رسمية، حينما يعهد بتدبير شئون الدولة لأحد أمراء المماليك مع سلطان صغير السن من أبناء السلاطين، كما حدث مع أبناء الناصر محمد، مثلما أطلق على الأمير قوصون الناصري، أرغون العلائي [٢]، والأمير شيخو[٣]، وإذا كان هناك أكثر من أمير صاحب نفوذ، كانت الهدنة بينهما تقتضي تقسيم السلطات، وذلك بالنص على من يكون منهما مدبر الدولة أو المملكة [٤].

وهناك أيضًا نموذج أخر، هو أنه جريًا على عادة المماليك بإسناد السلطنة لأبناء ملوكهم بعد موتهم لفترة قصيرة رعاية للسلطان الراحل، وحتى تتضح الأمور للأمير القوي الذي سيجلس على العرش، يتم النص على هذا الأمير كمدبر للمملكة، وعلى ذلك نجد كثيرًا من سلاطين المماليك قد أطلق عليهم "مدبر المملكة"، وحدث ذلك لكل من السلاطين المنصور قلاوون[٥]، والمؤيد شيخ[٦]، والظاهر ططر[٧]، والأشرف برسباي[٨]، والظاهر جقمق[٩]، ولم يطلق هذا اللقب بصفة رسمية على أرباب الأقلام، وإن أطلق عليهم في المكاتبات الرسمية [١٠].

من دلالة هذه الألقاب أنها تشير إلى قوة ونفوذ صاحبها، ومما يعضد هذه الفكرة أن هناك من أرباب الأقلام من أطلق عليه أكثر من لقب، دلالة على نفوذه في الدولة مثل زين الدين عبد الباسط [١١] الذي حظى بخمسة ألقاب؛ إلا أنه في حقيقة الأمر، ومن واقع دراسة حياته، وما تعرض له، كان أقل أرباب الأقلام نفوذًا وتعرضًا للمنافسين.

---

[١] هو الأمير بدر الدين جنكلي بن البابا، ت ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م، أحد عظماء دولة الناصر محمد منذ قدم عليه من أمد حيث كان عامل لخاقان المغول غازان. انظر: الصفدي، الوافي، ج١١، ١٥٤، ت رقم (٢٩٣٨)؛ ابن تغري بردي، المنهل، ج٥، ٢٢، ت رقم (٨٦٤).

[٢] هو الأمير سيف الدين أرغون العلائى الناصرى، من مماليك الناصر محمد استقر رأس نوبة الجمدارية عنده، ثم تزوج أم الملك الصالح إسماعيل، وفى عهده صار هو أكبر الأمراء ومدبر المملكة، قتل عام ٧٤٨ هـ. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٨، ٣٥٥، ت رقم ٣٧٨٨؛ ابن حجر، إنباء، ج١، ٣٧٦، ت رقم ٨٧٥.

[٣] الأمير شيخو هو الأمير الكبير سيف الدين شيخو بن عبد الله الناصري، أصله من كتابية الملك الناصر، تقدم في دولة المظفر حاجى وصار من أعيان الأمراء. ابن تغرى بردى: المنهل، ج٦، ٢٥٧. ٢٦٢، ت رقم ١١٩٢.

[٤] انظر على سبيل المثال، الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر المعاصر، ج٥، ط ١ (دمشق: دار الفكر، ١٩٩٨)، ٧٦؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ٥٥١؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج٨، ٢٣٨.

[٥] ابن حجر، الدرر، ج٢، ٢٠٤؛ ابن تغري بردي، المنهل، ج٦، ٩١.

[٦] ابن حجر، إنباء، ج٣، ٨٤؛ ابن تغري بردي، المنهل، ج٦، ٢٠٩.

[٧] ابن تغري بردي، النجوم، ج١٤، ١٦٩؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ١٢١.

[٨] ابن تغري بردي، النجوم، ج١٤، ٢٢٧.

[٩] ابن تغري بردي، النجوم، ج١٥، ١٠٥.

[١٠] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٦، ٦٩؛ السحماوي، الثغر الباسم، ج١، ٥٠١.

[١١] انظر الجدول المرفق نهاية البحث.

وهناك ممن أطلق عليهم ألقاب ذات دلالة قوية على نفوذه بالدولة كـ "عظيم الدولة"، و"عزيز مصر"، و "مدبر الدولة"، كانت قوته من مهابته الشخصية وأفعاله التي عُدت في ذلك الزمن من مكارم الأخلاق، ودلالة ذلك عدم انغماس صاحبها في الإضرار بالأشخاص، أو أخذ الرشا من الناس، وممن مثل هذه الشخصية: كريم الدين الكبير، والكمال البارزي، والجمالي يوسف، وابن مزهر.

على الرغم من أن الألقاب كانت مشتركة بين الجانبين، إلا أن هناك ألقابًا أطلقت على أرباب ألاقلام دون أرباب السيوف، مثل: "رئيس المملكة"، و"عزيز المملكة"، و"عزيز مصر" [١].

---

[١] انظر الجدول المرفق نهاية البحث.

الخاتمة

في نهاية هذا البحث يمكن إجمال نتائجه فيما يلي:

إن الألقاب التي أطلقت على أرباب الأقلام، والتي يظهر من خلالها تمتعهم بقوة كبيرة داخل الدولة، كانت معظمها دالة على نفوذهم بحق، بحيث يمكن التأكيد على أن من ذكروا في ثنايا البحث باعتبارهم أهم أرباب الأقلام في عصر دولة المماليك هم بالفعل كذلك، وإن لم تكن مظاهر قوتهم واحدة ومتساوية، ولكن أجمعت المصادر التاريخية المختلفة على قوتهم ونفوذهم.

برز تماما الدور الأساسي الذي لعبه سلاطين الدولة في بروز هذه الشخصيات على ساحة العمل السياسي والإداري لدولة المماليك، وأنه مهما تباينت علاقة السلاطين بنمو نفوذ هذه الشخصيات فيما بين الشره المالي، أو العلاقات القديمة أو القرب الوظيفي، إلا أنه لولا هذه العلاقات لما ظهرت هذه الأسماء، ولعل أهم نقاط هذه العلاقة يكمن في الشره المالي لسلاطين المماليك، بل لا توجد مبالغة إذا قلنا: إن معظم هذه الشخصيات قد ولج إلى عالم القوة والتحكم والنفوذ من هذا الأمر.

وكما كان ظهور أصحاب النفوذ من أرباب الأقلام على ساحة الأحداث مرتبطًا بسلاطين الدولة، ارتبطت ضراوة الصراع بين أصحاب النفوذ بالدولة، حول القرب من السلطان، والاستحواذ على كامل الحظوة عنده. ولم يكن هذا الصراع وقفًا فيما بين أرباب الأقلام فقط، ولكن في بعض الأحيان يكون بين أرباب السيوف من أمراء المماليك وأرباب الأقلام.

ومن أهم نتائج هذا البحث أن التوزيع الكمي بين عصري المماليك أظهر أن أرباب الأقلام كانوا أقل عددًا في العصر البحري، وذلك ينسجم مع فلسفة الحكم القائمة على سيطرة عنصر المماليك على مفاصل الدولة بدون تدخل من قوى المعممين إلا في أضيق الحدود، ولكن في عصر الجراكسة زادت أعدادهم نتيجة تغير فلسفة الحكم التي شهدت انفتاحًا على التمصر، وبالضرورة إحساس أرباب الأقلام بأنهم قادرين على الانخراط داخل أروقة السياسة المملوكية، وأن يجعلوا لهم–ولو على المستوى الشخصي–مكانة قوية مادية ومعنوية.

الجدول

أسماء أصحاب النفوذ في السلطنة المملوكية من أرباب الأقلام والسيوف بتسلسلهم الزمني وما حملوه من ألقاب

صاحب النفوذ	أرباب	فترة نفوذه تقريبًا	الألقاب التي وصفته بها المصادر
الوزير ابن حنا	أقلام	٦٥٩-٦٧٦هـ ١٢٦٠-١٢٧٧م	تمكن في الدولة (البداية والنهاية ٣٣١/١٣)
المنصور قلاوون (السلطان)	سيوف	٦٧٦-٦٧٨هـ ١٢٧٧-١٢٧٩م	مدبر المملكة (الدرر ٢٠٤/٢، المنهل ٩١/٦)
علم الدين سنجر الشجاعي	سيوف	٦٩١-٦٩٣هـ ١٢٩٢-١٢٩٤م	مدبر الدولة (الوافي ٢٥١/٤، السلوك ٧٣٥/٣/١) مدبر المملكة (النجوم ٢٤/٨)
منكوتمر	سيوف	٦٩٨هـ ١٢٩٨م	صاحب الحل والعقد (النجوم ١٠٠/٨)
أحمد بن عبادة	أقلام	٦٩٩-٧١٠هـ ١٢٩٩-١٣١٠م	عظيم الدولة (السلوك ٨٢/١/٢)
بدر الدين جنكلي بن البابا	سيوف	٧٠٤-٧٤٦هـ ١٣٠٣-١٣٤٥م	عظيم الدولة (المنهل ٢٢/٥)
برلغي الأشرفي	سيوف	٧٠٨-٧٠٩هـ ١٣٠٨-١٣٠٩م	عظيم الدولة (المنهل ٣٥٧/٣)
كريم الدين الكبير	أقلام	٧٠٩-٧٢٤هـ ١٣٠٩-١٣٢٣م	مدبر الدولة (الدرر ٤٠١/٢) صاحب الحل والعقد (مرآة الجنان ٢٠٤/٤، الدارس ٣٢٢/٢، شذرات ١١٤/٨)
قوصون الناصري	سيوف	٧٢٧-٧٤٢هـ ١٣٢٣-١٣٤١م	مدبر الدولة (السلوك ٥٥١/٣/٢) مدبر المملكة (النجوم ٣/١٠)
النشو	أقلام	٧٣٢-٧٤٠هـ ١٣٣١-١٣٣٩م	مدبر الدولة (أعيان العصر ٢٠٠/٣)

صاحب النفوذ	أرباب	فترة نفوذه تقريبًا	الألقاب التي وصفته بها المصادر
طاز الناصري	سيوف	٧٥٢-٧٥٥هـ ١٣٥١-١٣٥٤م	مدبر المملكة (المنهل ١/٣٠٩، ٦/٢٥٩) صاحب الحل والعقد (المنهل ٦/٣٣٢)
طيبغا الطويل	سيوف	٧٥٤-٧٦٧هـ ١٣٥٣-١٣٦٥م	صاحب الحل والعقد (المنهل ٦/٢٣٤)
شيخو الناصري	سيوف	٧٥٥-٧٥٨هـ ١٣٥٤-١٣٥٧م	عظيم الدولة (المنهل ٦/٢٦٠) مدبر المملكة (الدرر ٢/٣٥١، المنهل ٦/٢٥٩) صاحب الأمر والنهي (المنهل ١٢/٣٣٢٢) صاحب الحل والعقد (أعيان العصر ٢/٣٥١)
يلبغا الناصري الخاصكي	سيوف	٧٦٧-٧٦٨هـ ١٣٦٥-١٣٦٦م	مدبر الدولة (البداية ١٤/٣٢١، المنهل ٢/١٨٢) مدبر المملكة (إنباء ١/٣٦٨، النجوم ١١/٣٢٩) صاحب الأمر والنهي (الدرر ٦/٢٠٨) صاحب الحل والعقد (المنهل ٦/٢٣٤)
اسندمر الناصري	سيوف	٧٦٨-٧٦٩هـ ١٣٦٧-١٣٦٩م	مدبر المملكة (الدرر ١/٤٦٠) صاحب الحل والعقد (المنهل ٢/٤٤١)
قرا طاي العزي	سيوف	٧٧٨-٧٧٩هـ ١٣٧٦-١٣٧٧م	صاحب الحل والعقد (المنهل ٣/٢٢٢)
أينبك البدري	سيوف	٧٧٨-٧٨٠هـ ١٣٧٦-١٣٧٨م	صاحب الحل والعقد (المنهل ٣/٢٢٢)
بركة الجوباني	سيوف	٧٨٠-٧٨٢هـ ١٣٧٨-١٣٨٠م	صاحب الحل والعقد (النجوم ١١/١٦٣، المنهل ٣/٣٥٢)
برقوق (السلطان الظاهر)	سيوف	٧٨٣-٧٨٤هـ ١٣٨١-١٣٨٢م	مدبر المملكة (المنهل ٥/٤٨) صاحب الحل والعقد (النجوم ١١/١٦٣)

صاحب النفوذ	أرباب	فترة نفوذه تقريبًا	الألقاب التي وصفته بها المصادر
طشتمر العلائي	سيوف	٧٨٥-٧٨٦هـ ١٣٨٣-١٣٨٤م	مدبر المملكة (إنباء ٢/٦٦)
آيتمش البجاسي	سيوف	٧٩٠-٨٠٢هـ ١٣٨٨-١٣٩٩م	صاحب الحل والعقد (النجوم ١١/١٦٣)
يلبغا الناصري اليلبغاوي	سيوف	٧٩١هـ ١٣٨٨م	مدبر المملكة (المنهل ٦/٤٢٩، ٧/٣٤٠) صاحب الحل والعقد (المنهل ١٢/١٦٧)
منطاش	سيوف	٧٩١-٧٩٢هـ ١٣٨٨-١٣٨٩م	مدبر المملكة (رفع الإصر ٥٧)
سودون بن عبد الله	سيوف	٧٩٢-٧٩٧هـ ١٣٨٩-١٣٩٤م	عظيم الدولة (المنهل ٦/١٠٨)
يشبك الشعباني الخازندار	سيوف	٨٠٢-٨٠٣هـ ١٣٩٩-١٤٠٠م	مدبر الدولة (النجوم ١٢/٣٠٣) مدبر المملكة(المنهل ١٢/١٢٠، الضوء ١٠/٢٧٨) صاحب الحل والعقد (المنهل ٣/١٤٧)
جكم بن عوض	سيوف	٨٠٣-٨٠٤هـ ١٤٠٠-١٤٠١م	صاحب الحل والعقد (المنهل ٦/١٣٤)
سودون طاز	سيوف	٨٠٣-٨٠٦هـ ١٤٠٠-١٤٠٣م	صاحب الحل والعقد (المنهل ٦/١٣٤)
ابن غراب	أقلام	٨٠٦-٨٠٨هـ ١٤٠٣-١٤٠٥م	عزيز مصر (درر العقود ١/٩٩) صاحب الحل والعقد (المنهل ١/١٠٦، الضوء ١/٦٥)
إينال باي	سيوف	٨٠٧-٨٠٨هـ ١٤٠٤-١٤٠٥م	عظيم الدولة (درر العقود ١/٩٧)

صاحب النفوذ	أرباب	فترة نفوذه تقريبًا	الألقاب التي وصفته بها المصادر
جمال الدين الإستادار	أقلام	٨٠٨-٨١٢هـ ١٤٠٥-١٤٠٩م	عظيم الدولة (النجوم ١٣/٩١) مدبر الدولة (السلوك٢/٢/٤٦٨) حاكم الدولة ومدبرها (النجوم ١٣/٩٥) عزيز مصر (درر العقود ٣/٥٦٣، إنباء ٢/٤٤٦)
شيخ (السلطان المؤيد)	سيوف	٨١٥هـ/ ١٤١٢م	مدبر المملكة (إنباء ٣/٨٤، ٦/٢٠٩)
ناصر الدين البارزي	أقلام	٨١٥-٨٢٣هـ ١٤١٢-١٤٢٠م	عظيم الدولة (درر العقود ٣/١١٦، المنهل ١١/٧) صاحب الحل والعقد (النجوم ١٤/١٦٢)
جانبك المؤيدي الدوادار	سيوف	٨١٦-٨١٧هـ ١٤١٣-١٤١٤م	عظيم الدولة (المنهل ٤/٢٢٢)
ططر (السلطان الظاهر)	سيوف	٨٢٤هـ ١٤٢١م	مدبر المملكة (النجوم ١٤/١٦٩، حُسن ٢/١٢١) صاحب الحل والعقد (المنهل ٤/١٥)
برسباي (السلطان الأشرف)	سيوف	٨٢٤هـ ١٤٢١م	مدبر المملكة (النجوم ١٤/٢٢٧)
زين الدين عبد الباسط	أقلام	٨٢٥-٨٤٢هـ ١٤٢٠-١٤٣٨م	عظيم الدولة (السلوك ٤/٢/٦٣٦، الدارس ٢/٨٢) مدبر الدولة (السلوك ٤/٢/٦٣٦) مدبر المملكة (إنباء ٤/١١٩) صاحب الحل والعقد (الدارس ٢/١١١) عزيز المملكة (الأنس ٢/٣٩) رئيس المملكة (الأنس ٢/١٨٩، ٢١٦)
جانبك الأشرفي الدوادار	سيوف	٨٢٦-٨٣١هـ ١٤٢٢-١٤٢٧م	عظيم الدولة (المنهل ٤/٢٣٢) صاحب الأمر والنهي (السلوك ٤/٢/٦٧٧) صاحب الحل والعقد (المنهل ٤/٢٣٣)

صاحب النفوذ	أرباب	فترة نفوذه تقريبًا	الألقاب التي وصفته بها المصادر
جوهر القنقبائي	سيوف	٨٣٠-٨٤٤هـ ١٤٢٦-١٤٤٠م	صاحب الحل والعقد (المنهل ٥/٤٠)
بيبرس الأحمدي	سيوف	٧٤١-٧٤٦هـ ١٣٤٠-١٣٤٥م	صاحب الحل والعقد (المنهل ٣/٤٧٩)
جمال الدين بن يوسف	أقلام	٨٤١-٨٦٢هـ ١٤٣٧-١٤٥٧م	عظيم الدولة (النجوم ١٤/١٠٣، الضوء ٢/٩٠) مدبر المملكة (النجوم ١٦/١٩٧)
جقمق (السلطان الظاهر)	سيوف	٨٤٢هـ/١٤٣٨م	مدبر المملكة (النجوم ١٥/١٠٥)
كمال الدين البارزي	أقلام	٨٤٢-٨٥٦هـ ١٤٣٨-١٤٥٢م	عظيم الدولة (المنهل ١١/١٤، حوادث ٢/٣٥٨)
أبو الخير النحاس	أقلام	٨٤٦-٨٥٤هـ ١٤٤٢-١٤٥٠م	صاحب الأمر والنهي (المنهل ١٢/٣٢٢) صاحب الحل والعقد (حوادث ١/٢٥٨، ٢٧٧)
جانبك الدوادار نائب جدة	سيوف	٨٤٩-٨٦٧هـ ١٤٤٥-١٤٦٢م	عظيم الدولة (النجوم ١٦/٢٥٨، الضوء ٢/٢٧١) مدبر المملكة (النجوم ١٦/٣٢٢، الضوء ٣/٥٨)
أبو بكر بن مزهر	أقلام	٨٦٦-٨٩٣هـ ١٤٦١-١٤٨٧م	عزيز مصر (الضوء ١١/٨٩)
تمربغا (السلطان الظاهر)	سيوف	٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م	مدبر المملكة (النجوم ١٦/٣٧٧)
خاير بك الدوادار الثاني	سيوف	٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م	صاحب الحل والعقد (النجوم ١٦/٣٦١)

المصادر والمراجع

أولًا- المصادر العربية:

١-ابن إياس (محمد بن أحمد) ت ٩٣٠ هـ، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٨٤.

٢-ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف) ت ٨٧٤ هـ،

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٨-١٩٧٢.

- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، نبيل محمد عبد العزيز، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٨٤-٢٠٠٩م.

- حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين، ط١، القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٠-١٩٩١.

٣-ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي بن محمد) ت ٨٥٢ هـ،

- إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٦٩-١٩٩٨.

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ط١، بيروت: دار الجيل، ١٩٩٣.

٤-سبط بن العجمي (أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خليل) ت ٨٨٤ هـ، كنوز الذهب في تاريخ حلب، ط١، تحقيق: شوقي شعث، وفالح البكور، ط١، حلب: دار القلم العربي، ١٩٩٧.

٥-السحماوي (شمس الدين محمد بن محمد) ت ٨٦٨ هـ، الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم، تحقيق: أشرف محمد أنس، القاهرة: دار الكتب المصرية، ٢٠٠٩.

٦-السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) ت ٩٠٢ هـ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت: دار الجيل، ١٩٩٢.

٧-ابن شاهين (خليل بن شاهين الظاهري) ت ٨٧٣ هـ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس: نشر بول راويس، ١٨٩٤.

٨-الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك) ت ٧٦٤ هـ،

- الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤط، تركي مصطفى، ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٠.

- أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر المعاصر، ط١، بيروت: دار الفكر، ١٩٩٨.

٩-الصيرفي (الخطيب الجوهري علي بن داوود) ت ٩٠٠ هـ، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٧١.

١٠- العماد الحنبلي (عبد الحي بن أحمد بن محمد) ت ١٠٨٩ هـ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، ط١، دمشق-بيروت: دار ابن كثير، ١٩٨٦.

١١- القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي) ت ٨٢١ هـ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩١٤-١٩١٩م.

١٢- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) ت ٨٤٥ هـ،

- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٥٧. ١٩٧٣.

- درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق: محمود الجليلي، ط١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٢.

- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، لندن: مؤسسة الفرقان للتراث، ٢٠٠٤.

١٣- النعيمي (عبد القادر بن محمد) ت ٩٢٧ هـ، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م.

١٤- اليافعي (عبد الله بن أسعد بن عبي) ت ٧٦٨ هـ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق: خليل المنصور، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧.

ثانيًا: المراجع العربية والأجنبية

١-أحمد حسن البطاوي، أهل العمامة في مصر في عصر سلاطين المماليك، ط١، القاهرة: دار عين، ٢٠٠٧.

٢-أحمد عبد الكريم سليمان: العنصرية وأثرها في الجيش المملوكي، ط١، القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٨٨.

٣-أشرف محمد أنس،

- كتب الدساتير في عصر المماليك، القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠١٢م.
- دراسات في التاريخ والحضارة، القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠١٢م.

٤-البيومي إسماعيل الشربيني: مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية، سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م.

٥-سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٩٢م.

٦-قاسم عبد قاسم، عصر سلاطين المماليك، ط١، القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٤.

7- Poliak A.N., Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and Lebanon. London: Royal Asiatic Society, 1939.

ثالثًا- المقالات العربية والأجنبية:

١-حياة ناصر الحجي،

– الامير تنكز الحسامي نائب الشام في الفترة ٧١٢ – ٧٤١هـ، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية ١، الرسالة ٤ (١٩٨٠): ٣ – ٧٦.

– الأوضاع السياسية والاقتصادية في حكم المؤيد شيخ في سلطنة المماليك، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مج٩، ع٣٦ (١٩٨٩): ٨–٥٥.

– الأمير قوصون: صورة حية لنظام الحكم في سلطنة المماليك، المجلة العربية للعلوم الانسانية، جامعة الكويت، مج٨، ع٣٢ (١٩٨٨): ٦– ٥٥.

٢–طبابي بلقاسم، ظاهرة عصيان المماليك السلطانية في القاهرة المملوكية في العهد الجركسي، بحث منشور في تونس: أشغال الملتقى الدولي الخامس حول الحركات الاجتماعية في العالم العربي الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة تونس (٢٠٠٨): ٢٢٧–٢٧٤.

٣–علاء طه رزق، الاحتكار السلعي وأثاره السلبية على المجتمع المصري، وقائع تاريخية، مركز البحوث والدراسات التاريخية، جامعة القاهرة (يناير، ٢٠١١): ١٩٧–٢٣٨.

٤–محمد عيسى صالحية، ظاهرة الرمي والطرح، مجلة أبحاث اليرموك وسلسلة العلوم الانسانية والاجتماعية، المجلد ٩، العدد٦ (١٩٩٣): ٥١–١٢٤.

٥–مسعد الكتبي، ناظر الخاص السلطاني النشو وسنواته السبع العجاف، مجلة كلية التربية، جامعة كفر الشيخ، العدد ٥ (٢٠٠٨): ١٤٩–٢٢٩.

6- Mortel, Richard Grand "Dawadar" and Governor of Jedda: The Career of the Fifteenth Century Mamluk Magnate Ganibak al-Zahir", *Arabica, T. 43, Fasc. 3* (Sep., 1996): 437-456.